ذاكرة القرن العشرين

٢٦ آذار (مارس) ١٩٨٢

رحيل الزعيم الوطني السوري سلطان باشا الاطرش

■ لعل حكاية الثورة التي شنها سلطان باشا الاطرش على الفرنسيين في ١٩٢٢ متحدياً اياهم وهم في عز قوتهم بعد انتصارهم على حركة الملك فيصل واجهاضهم الحلم العربي الكبير، لعل حكاية تلك الثورة قادرة اكثر من غيرها على الكشف عن واحدة من الشخصيات الاكثر كرماً والاكثر وطنية التي عرفها التاريخ العربي الحديث. فمن باب اولى لم تكن دوافع تلك الثورة سياسية ولا كانت اجتماعية، كانت مجرد انتفاضة شرف وشهامة تتناسب تماماً مع ما عرف عن سلطان باشا الاطرش من تقاليد. لقد ثار يومها لأن الفرنسيين اعتدوا على التقاليد العربية التي تحتم حماية المستجير، حين اعتقلوا ابهم حنجر الذي كان لجأ الى بيت الاطرش في غيابه. وكان الفرنسيون يطاردون حنجراً بعد ان فشل في المحاولة التي قام بها لاغتيال الجنرال غورو، المندوب السامي الفرنسي. يومذاك فشلت ثورة سلطان باشا الاطرش واضطر لمغادرة سورية، لكنه سرعان ما عاد اليها بـ «عفو خاص»، غير ان ذلك لم ينسه ابداً ان ثمة عداء تأصل بينه وبين الفرنسيين. وهكذا راح يتحين الفرص ويزيد من الاتصال برجال الثورة والوطنيين حتى كانت ثورة العام ١٩٢٥ التي اختير سلطان باشا الاطرش رئيساً لمجلسها الوطني وقائداً عاماً لجيوشها. ولئن كان سلطان باشا الاطرش قد اعتبر على الدوام اسطورة من اساطير النضال الوطني العربي في سورية، فإن اسطورته كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير، بل منذ طفولته.

يروى عن سلطان باشا الاطرش، الذي ولد العام ١٨٩١ في قرية «القريا»، في قصاء صلخد بجبل العرب، انه لم يتلق اية دراسة حكومية او خاصة، وان كل ما تلقاه من تعليم كان تعليمه في كتاب قريته. اما الحكمة العميقة التي عرفت عنه ومعرفته الواسعة بالكثير من الامور، فلقد اكتسبهما من خلال مراقبته الدقيقة لكل ما يقال من حوله، وكثرة اصغائه للناس وانفتاحه عليهم. منذ صباه كانت لسلطان الاطرش خاصة زعيم حقيقي. ولقد اتى اعدام الاتراك العثمانيين لوالده ذوقان الاطرش مع عدد من الزعماء السوريين، شنقاً، في دمشق في العام ١٩١٥، ليكرس من مكانته هو الذي كانت ثورته المبكرة ضد العثمانيين قد اعتبرت واحداً من الاسباب التي ادت الى اعدام والده ورفاقه.

ثورة سلطان الاطرش الاولى كانت وهو في الثامنة عشرة من عمره وكانت ضد العثمانيين. اما الثورة الكبرى التي خاضها وكرست مكانته في العام ١٩٢٥ فلقد عرفته شاباً جريئاً مقداماً يجاهر بآرائه ويقود الرجال في المعركة اثر المعركة. ولقد كرست الزعامات الوطنية (حزب الشعب وحزب الاستقلال) مكانة سلطان باشا الاطرش حين جعلت منه زعيماً للثورة، وهو بتلك الصفة اذاع اول بيان للثورة محدداً مطالبها، واهمها الحفاظ على وحدة البلاد السورية، في الساحل والداخل، قيام حكومة شعبية وطنية تشرف على انتخابات مجلس تأسيسي يتولى وضع قانون اساسي على مبدأ سيادة الأمة المطلقة وسحب القوى المحتلة من البلاد.

كانت ثورة ١٩٢٥ واحدة من اعنف الثورات التي انتفضت في وجه الانتداب الفرنسي. ولقد شعر الفرنسيون بخطرها حقاً، لذلك ركزوا جهودهم لدحرها، وهم تمكنوا من ذلك وان بصعوبات شديدة، وبفضل العديد من الانشقاقات والخلاف في وجهات النظر بين القوى الوطنية التي راح بعضها يبدي شيئاً من الليونة. لكن سلطان باشا الاطرش بقي واحداً من الزعماء الاكثر تشدداً. ومن هنا حين انتهى امر ثورة العام ١٩٢٥ بهزيمتها على ايدي الفرنسيين، اضطر سلطان باشا الاطرش لأن يدرج مع عدد من افراد اسرته الى منطقة الازرق في شرق الأردن. وقد اصطحبه عدد من رفاقه الثوار وكلهم امل في ان يلعبوا على التناقض الفرنسي/ البريطاني لاستئناف الثورة عما قريب. لكن الاتفاق سرعان ما وقع بين الفرنسيين والبريطانيين، ووجد سلطان الاطرش لزاماً عليه ان يتابع نزوحه، فتوجه الى منطقة وادي السرحان في المملكة العربية السعودية حيث بقي مقيماً هناك نحواً من عشر سنوات. وهو لم يعد الى سورية الا في العام ١٩٣٦، بعد ان قامت في فرنسا حكومة الجبهة الشعبي اليسارية التي خففت القبضة عن سورية، ووقعت مع زعاماتها مشروع معاهدة بالأحرف الاولى، تواكب مع صدور عفو عام عن قادة ثورة ١٩٢٥ ورجالها. وهكذا عاد سلطان باشا الاطرش الى جبل العرب عزيزاً مكرماً. وكان مقدراً له ان يعيش هناك هانئاً هادئاً. لولا مجيء ديكتاتورية اديب الشيشكلي حيث ثار الصراع من جديد بين سلطان الاطرش والقوى الوطنية من جهة، والشيشكلي من جهة ثانية، خاصة وان الاطرش ارسل مندوبين عنه شاركوا في مؤتمر للمعارضة عقد في حمص، فما كان من الشيشكلي الا ان جرد حملة عسكرية زحفت على جبل العرب وقامت الطائرات بتدمير العديد من المنازل والقرى. ومن جديد اضطر سلطان باشا الاطرش الى النزوح الى شرق الاردن، حيث اقام في منطقة «المدورة». وحين انتهى عهد اديب الشيشكلي بانقلاب ابعده، عاد سلطان الاطرش الى قريته وجبله من جديد، حيث استقبل استقبال الابطال. وهو عاش هناك ذاكرة وطنية ومنبعاً للحكمة الشعبية، حتى رحل عن عالمنا يوم ٢٦ آذار (مارس) ١٩٨٢ وقد جاوز التسعين من عمره ولا يزال يتمتع بوعيه وحكمته وقوته.

ابراهيم العريس

جريدة الحياة الأربعاء ٢٦ آذار ١٩٩٧ - ١٧ ذو القعدة ١٤١٧هـ - العدد ١٣٤٤٥